

لَفْتَةُ الْكِبْدِ إِلَى نصيحةِ الْوَلِدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِينُ

٣٧٤ - المقدمة

١٦٧٥ - الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْشَأَ الْأَبَ الْأَكْبَرَ^(١) مِنْ تُرَابٍ، وَأَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ التَّرَائِبِ^(٢) وَالْأَضْلَابِ، وَعَصَدَ^(٣) الْعَشَائِرَ بِالْقَرَابَةِ وَالْأَنْسَابِ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِالْعِلْمِ وَعِرْفَانِ الصَّوَابِ، وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتِي فِي الصِّبَا^(٤)، وَحَفَظَنِي فِي الشَّبَابِ، وَرَزَقَنِي ذُرِّيَّةً أَرْجُو بِوُجُودِهِمْ^(٥) وَفُورَ^(٦) الشَّوَابِ، «رَبِّ أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الْصَّلَوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِهِ» رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَلِدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ [إِبْرَاهِيمٌ].

١٦٧٦ - أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنِّي لَمَّا عَرَفْتُ شَرْفَ النِّكَاحِ، وَفَضْلَ^(٧) الْأَوْلَادِ، خَتَمْتُ خِتْمَةً، وَسَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقْنِي عَشْرَةً أُولَادًا، فَرَزَقَنِيهِمْ^(٨)، فَكَانُوا: خَمْسَةً ذُكُورٍ، وَخَمْسَ إِنَاثٍ، فَمَا مَاتَ مِنَ الْإِنَاثِ أُثْنَتَانِ، وَمِنَ الذُّكُورِ أَرْبَعَةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الذُّكُورِ سَوَى وَلَدِي أَبِي الْقَاسِمِ^(٩)، فَسَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ فِيهِ الْخَلْفَ الصَّالِحَ، وَأَنْ يَلْعَغَ بِهِ الْمُنَى وَالْمَنَاجِحَ.

(١) الأَبُ الْأَكْبَرُ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) التَّرَائِبُ: عَظَامُ الصُّدْرِ مَا يَلِي التَّرْقُوتَيْنِ. (٣) قَوِيٌّ.

(٤) فِي نسخة: الصَّغِيرُ.

(٦) وَفُورٌ: كَثْرَةٌ.

(٨) فِي نسخة: فَرَزَقَنِي إِبْرَاهِيمُ.

(٩) وَاسْمُهُ عَلِيٌّ، وُلِدَ سَنَةَ (٥٥١) هـ، وَتَوَفَّى سَنَةَ (٦٣٠) هـ.

١٦٧٧ - ثُمَّ رَأَيْتَ مِنْهُ نَوْعَ تَوَانٍ^(١) عَنِ الْجَهَدِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَكَتَبْتُ لَهُ^(٢) هَذِهِ الرِّسَالَةَ، أَحْثَهُ بِهَا، وَأَحْرَكُهُ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِي فِي كَسْبِ الْعِلْمِ، وَأَدْلُهُ عَلَى الْاِلْتِجَاءِ^(٣) إِلَى الْمُؤْفَقِ بِنَحْلَهُ، مَعَ عَلْمِي بِأَنَّهُ لَا خَادِلَ لِمَنْ وَفَقَ، وَلَا مُرْشِدَ لِمَنْ أَصَلَّ، لِكِنْ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّيْر﴾ [العصر: ٣]، وَقَالَ: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ تَفَعَّتِ الْذِكْرَ﴾ [الأعلى: ٩]، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

٣٧٥ / ١ - فصل: تميز الآدمي بالعقل

١٦٧٨ - أَعْلَمُ يَا بُنَيَّ - وَفَقَكَ اللَّهُ لِلصَّوَابِ - أَنَّهُ لَمْ يَتَمَيَّزِ الْآدَمِيُّ بِالْعَقْلِ إِلَّا لِيَعْمَلَ بِمُفْتَضَاهِ، فَاسْتَحْضِرْ عَقْلَكَ، وَأَعْمِلْ فِكْرَكَ، وَأَخْلُ بِنَفْسِكَ.

١٦٧٩ - تَعْلَمُ بِالدَّلِيلِ أَنَّكَ مَخْلُوقٌ مُكَلَّفٌ، وَأَنَّ عَلَيْكَ فَرَائِضَ أَنْتَ مُطَالِبٌ بِهَا، وَأَنَّ الْمَلَكَيْنِ يُحْصِيَانِ الْفَاظَكَ وَنَظَرَاتَكَ، وَأَنَّ أَنفَاسَ الْحَيِّ خُطَاءُ إِلَى أَجْلِهِ^(٤)، وَمِقْدَارَ الْلَّبْثِ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَالْحَبْسَ فِي الْقُبُورِ طَوِيلٌ، وَالْعَذَابَ عَلَى مُوَافَقَةِ الْهَوَى وَبِيَلٌ^(٥). فَأَيْنَ لَذَّةُ أَمْسٍ؟ رَاحَلْتُ وَأَبْقَتُ نَدَمًا!! . وَأَيْنَ شَهْوَةُ النَّفْسِ؟ كُمْ نَكَسْتُ رَأْسًا، وَأَرَلَتْ قَدَمًا، وَمَا سَعِدَ مَنْ سَعِدَ إِلَّا بِخِلَافِ هَوَاهُ، وَلَا شَقِّيَ مَنْ شَقِّيَ إِلَّا بِإِيَّاشِ دُنْيَاهُ.

فَأَغْتَبِرْ بِمَنْ مَضَى مِنَ الْمُلُوكِ وَالْزُّهَادِ، أَيْنَ لَذَّةُ هُؤُلَاءِ؟ وَأَيْنَ تَعْبُ أَوْلَئِكَ؟ بَقِيَ التَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَالذَّكْرُ الْجَمِيلُ لِلصَّالِحِينَ^(٦)، وَالْقَالَةُ^(٧) الْقِيَحَةُ وَالْعِقَابُ الْوَبِيلُ لِلْعَاصِينَ، وَكَانَهُ مَا جَاءَ مَنْ جَاءَ، وَلَا شَيْءَ مَنْ شَيْءَ.

١٦٨٠ - وَالْكَسَلُ عَنِ الْفَضَائِلِ يُئْسِرُ الرَّفِيقَ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ يُؤْرِثُ مِنَ النَّدَمِ مَا يَرْبُو^(٨) عَلَى كُلِّ لَذَّةٍ، فَأَنْتِهِ وَاتَّعْبُ لِنَفْسِكَ.

(١) توانٍ: فتور وكسل.

(٢) في نسخة: إليه.

(٣) في نسخة: اللجا.

(٤) في نسخة: فإن أنفاس خطواتك إلى أجلك.

(٥) شديد.

(٦) في نسخة: للطائعين.

(٧) في ت: المقالة

(٨) يزيد.

١٦٨١ - وَأَعْلَمُ أَنَّ أَدَاءَ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابَ الْمَحَارِمِ لازِمٌ، فَمَتَى تَعَدَّ الإِنْسَانُ فِي النَّارِ !! .

١٦٨٢ - ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّ طَلَبَ الْفَضَائِلِ نِهَايَةُ مُرَادِ الْمُجْتَهِدِينَ .

١٦٨٣ - ثُمَّ الْفَضَائِلُ تَتَفَاقَوْتُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى الْفَضَائِلَ: الرُّهْدَةُ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهَا التَّشَاغُلُ بِالْتَّعْبِيدِ .

١٦٨٤ - وَعَلَى الْحَقِيقَةِ، فَلَيْسَتِ الْفَضَائِلُ الْكَامِلَةُ إِلَّا الْجَمْعُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَإِذَا حَصَلَا رَفَعا صَاحِبَهُمَا إِلَى تَحْقيقِ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَرَّكَاهُ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَخَشْيَتِهِ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ .

فَتِلْكَ الغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ، وَ«عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ»^(١)، وَلَيْسَ كُلُّ مَرِيدٍ^(٢) مُرَادًا^(٣)، وَلَا كُلُّ طَالِبٍ وَاجِدًا، وَلَكِنْ عَلَى الْعَبْدِ الْإِجْتِهَادُ، وَ«كُلُّ مُيسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٤) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

٣٧٦/٢ - فصل: معرفة الله بالدليل أول ما ينبغي النظر فيه

١٦٨٥ - وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي النَّظرُ فِيهِ: مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى بِالدَّلِيلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رَأَى السَّمَاءَ مَرْفُوعَةً، وَالْأَرْضَ مَوْضُوعَةً، وَشَاهَدَ الْأَبْنِيَةَ الْمُحْكَمَةَ خُصُوصًا فِي جَسَدِ نَفْسِهِ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا بُدُّ لِلصَّنْعَةِ مِنْ صَانِعٍ، وَلِلْمَبْنَىِ مِنْ بَانِ .

١٦٨٦ - ثُمَّ يَتَأَمَّلُ صِدْقُ الرَّسُولِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَيْهِ، وَأَكْبَرُ الدَّلَائِلُ الْقُرْآنُ الَّذِي أَعْجَزَ الْخَلْقَ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ .

١٦٨٧ - فَإِذَا ثَبَتَ عِنْدُهُ وُجُودُ الْخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - وَصِدْقُ الرَّسُولِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَجَبَ تَسْلِيمُ عِنَانِهِ^(٥) إِلَى الشَّرْعِ، فَمَتَى لَمْ يَفْعَلْ، دَلَّ عَلَى خَلْلٍ فِي اعْتِقادِهِ .

(١) صدر بيت للمتنبي وعجزه: «وتأتي على قدر الكرام المكارم». ديوانه ص(٣٧٤).

(٢) في نسخة: مراد.

(٣) أي: ليس كل ما يريده الإنسان يريده الله تعالى.

(٤) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) عن علي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

(٥) زمام أمره.

١٦٨٨ - يَجِبُ عَلَيْهِ^(١) أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ وَالرَّكَاةِ - إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ - وَالحِجَّةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، فَإِذَا عَرَفَ قَدْرَ الْوَاجِبِ قَامَ بِهِ.

١٦٨٩ - فَيَنْبَغِي لِذِي الْهِمَّةِ أَنْ يَتَرَقَّى إِلَى الْفَضَائِلِ فَيَتَشَاغَلَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ، وَبِحَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبِمَعْرِفَةِ سِيرَتِهِ وَسِيرِ أَصْحَابِهِ وَالْعُلَمَاءِ بَعْدَهُمْ، لِيَتَحِيرَ مَرْتَبَةَ الْأَعْلَى فَالْأَعْلَى، وَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يُقْيِسُ بِهِ لِسَانَهُ مِنَ النَّحْوِ، وَمَعْرِفَةِ طَرَفِ مُسْتَعْمَلٍ مِنَ اللُّغَةِ.

١٦٩٠ - وَالْفِقْهُ أَصْلُ^(٢) الْعُلُومِ، وَالتَّذَكِيرُ^(٣) حُلْوَاهَا، وَأَعْمَها نَفْعًا، وَقَدْ رَتَبَتْ فِي هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنَ التَّصَانِيفِ مَا يُعْنِي عَنْ كُلِّ مَا سَبَقَ مِنْ تَصَانِيفِ الْقُدَمَاءِ وَغَيْرِهَا بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنِّهِ، فَأَعْنَيْتُكَ عَنْ تَطْلُبِ الْكُتُبِ، وَجَمْعِ الْهِمَمِ لِلتَّصْنِيفِ، وَمَا تَقْفُ هِمَّةُ إِلَّا لِخَسَاسَتِهَا، وَإِلَّا فَمَتَّى عَلَتِ الْهِمَّةُ فَلَا تَقْنَعُ بِالدُّونِ.

١٦٩١ - وَقَدْ عَرَفْتُ بِالدَّلِيلِ أَنَّ الْهِمَّةَ مَوْلُودَةٌ مَعَ الْأَدْمِيِّ، وَإِنَّمَا تَقْصُرُ بَعْضُ الْهِمَمِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، فَإِذَا حَثَّتْ سَارَتْ. وَمَتَّى رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ عَجْزًا فَسَلِ الْمُنْعِمَ، أَوْ كَسَلًا فَالْجَأْنَى إِلَى الْمُوْفِقِ، فَلَنْ تَنَالْ خَيْرًا إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَلَا يَقُوتُكَ خَيْرٌ إِلَّا بِمَعْصِيَتِهِ، فَمَنِ الَّذِي أُقْبِلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرِدْ^(٤) كُلَّ مُرَادٍ؟ وَمَنِ الَّذِي أَعْرَضَ عَنْهُ فَمَضَى بِفَائِدَةِ، أَوْ حَظِيَ بِعَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِهِ؟!. أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ^(٥):

وَاللَّهُ مَا جَئْتُكُمْ زَائِرًا إِلَّا وَجَدْتُ الْأَرْضَ تُطْوَى لِي
وَلَا ثَنَيْتُ الْعَزْمَ عَنْ بَايْكُمْ إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

٣٧٧ - فصل: تدبیر اللطیف عبدہ الضعیف

١٦٩٢ - وَانْظُرْ - يَا بُنَيَّ - إِلَى نَفْسِكَ عِنْدَ الْحُدُودِ^(٦)، فَتَلَمَّحْ: كَيْفَ حِفْظُكَ

(١) في نسخة: ينبغي له.

(٢) في نسخة: أم.

(٣) في نسخة: والوعظ.

(٤) يرد من الورود، وفي نسخة: ير.

(٥) نسبة المؤلف للشريف الرضي ولم أجدها في ديوانه.

(٦) الحدود: الحلال والحرام.

لَهَا؟ فَإِنَّهُ مَنْ رَاعَى رُوعِي^(١)، وَمَنْ أَهْمَلَ تُرِكَ.

١٦٩٣ - وَإِنِّي لَا ذُكْرُ لَكَ بَعْضَ أَحْوَالِي، لَعَلَّكَ تَنْظُرُ إِلَى اجْتِهَادِي، وَتَسْأَلُ الْمُوْفَقَ لِي، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِنْعَامِ عَلَيَّ لَمْ يَكُنْ بِكُسْبِيِّ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ تَدْبِيرِ الْلَّطِيفِ بِي، فَإِنِّي أَذْكُرُ نَفْسِي وَلِي هِمَةُ عَالِيَّةُ، وَأَنَا فِي الْمَكْتَبِ ابْنُ سِتٍّ سِنِينَ، وَأَنَا قَرِينُ الصَّبِيَّانِ الْكِبَارِ، قَدْ رُزِقْتُ عَقْلًا وَافِرًا فِي الصَّغَرِ، يَزِيدُ عَلَى عَقْلِ الشِّيُّوخِ، فَمَا أَذْكُرُ أَنِّي لَعِبْتُ فِي طَرِيقِ مَعَ الصَّبِيَّانِ قَطُّ، وَلَا ضَحِحْتُ ضَحِحًا خَارِجًا^(٢). حَتَّى إِنِّي كُنْتُ، وَلِي سَبْعُ سِنِينَ أَوْ نَحْوُهَا أَخْضُرُ رَحَبَةَ الْجَامِعِ، فَلَا أَتَخَيَّرُ حَلْقَةً مَشَعِيدًا^(٣)، بَلْ أَطْلُبُ الْمُحَدَّثَ فَيَتَحَدَّثُ بِالسِّيرِ^(٤) الطَّوِيلِ، فَأَحْفَظُ جَمِيعَ مَا أَسْمَعْتُهُ، وَأَذْهَبُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَكْتُوبُهُ.

١٦٩٤ - وَلَقَدْ وُفِقَ لِي شَيْخُنَا أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ نَاصِرٍ رَحْمَةُ اللَّهِ وَكَانَ يَحْمِلُنِي إِلَى الشِّيُّوخِ، فَأَسْمَعَنِي (الْمُسْنَد)^(٥) وَغَيْرُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْكِبَارِ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ مَا يُرَادُ مِنِّي، وَضَبَطَ لِي مَسْمُوْعَاتِي إِلَى أَنْ بَلَغْتُ، فَنَاؤَلَنِي ثَبَّتَهَا^(٦)، وَلَازَمْتُهُ إِلَى أَنْ تُؤْفَى رَحْمَةُ اللَّهِ فَنِلتُ^(٧) بِهِ مَعْرِفَةَ الْحَدِيثِ وَالنَّقلِ.

١٦٩٥ - وَلَقَدْ كَانَ الصَّبِيَّانُ يَنْزِلُونَ إِلَى دِجلَةَ، وَيَتَفَرَّجُونَ عَلَى الْجِسْرِ، وَأَنَا فِي زَمِنِ الصَّغَرِ، أَخْذُ جَزْءًا، وَأَقْعُدُ حُجْرَةً^(٨) مِنَ النَّاسِ إِلَى جَانِبِ الرَّرَقَةِ^(٩)، فَأَتَشَاغَلُ بِالْعِلْمِ.

١٦٩٦ - ثُمَّ أَلْهَمْتُ الزُّهْدَ، فَسَرَدْتُ الصَّوْمَ، وَتَشَاغَلْتُ بِالتَّقْلِيلِ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَلْرَمْتُ نَفْسِي الصَّبَرَ، فَاسْتَمَرْتُ، وَشَمَرْتُ، وَلَازَمْتُ وَعَالَجْتُ^(١٠) السَّهَرَ، وَلَمْ أَقْنَعْ بِنَنِ مِنَ الْعُلُومِ، بَلْ كُنْتُ أَسْمَعُ الْفِقْهَةَ وَالْوَعْظَ وَالْحَدِيثَ، وَأَتَّبَعُ الرُّهَادَ.

(١) أي: من حفظ حدود الله حفظه الله مصدق الحديث ابن عباس الآتي ذكره في الفصل (٣٨٣).

(٢) أي: خارجاً عن حدود الأدب.

(٣) في ت: مشعبة.

(٤) في نسخة: بالسرد الطويل.

(٥) مسند الإمام أحمد.

(٦) مجموع فيه مسموعاته ويسمى المعجم، وعند المغاربة: الفهرس، وعند الأندلسيين: البرنامج.

(٧) في نسخة: فأدركت.

(٩) الرقة: منطقة في الجانب الغربي من بغداد مقابل دار الخلافة، سميت الرقة، لأنها كانت تشكل لساناً يمتد إلى النهر، محلها الآن باب السيف، والزركيجي القسم المطل على النهر.

(١٠) زاولت.

١٦٩٧ - ثُمَّ قَرَأْتُ اللُّغَةَ، وَلَمْ أَتُرُكْ أَحَدًا مِمْنَ يَرْوِي وَيَعْظُ، وَلَا غَرِيبًا يَقْدِمُ إِلَّا وَأَحْضُرُهُ، وَأَتَخِيرُ الْفَضَائِلَ.

١٦٩٨ - وَكُنْتُ إِذَا عَرَضَ لِي أَمْرَانِ أُقْدِمُ فِي أَعْلَبِ الْأَحْوَالِ حَقَّ الْحَقِّ، فَأَحْسَنَ اللَّهُ تَدْبِيرِي وَتَرْبِيَتِي، وَأَجْرَانِي عَلَى مَا هُوَ الْأَصْلُحُ لِي، وَدَفَعَ عَنِي الْأَعْدَاءَ وَالْحُسَادَ وَمَنْ يَكِيدُنِي، وَهَيَا لِي أَسْبَابُ الْعِلْمِ، وَبَعَثَ إِلَيَّ الْكُتُبَ مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ، وَرَزَقَنِي الْفَهْمَ، وَسُرْعَةَ الْحِفْظِ، وَالْحَظَّ وَجَوْدَةَ التَّصْنِيفِ، وَلَمْ يُعَوِّزْنِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، بَلْ سَاقَ إِلَيَّ مِنَ الرِّزْقِ مَقْدَارَ الْكِفَايَةِ وَأَزِيدَ.

١٦٩٩ - وَوَضَعَ لِي مِنَ الْقَبُولِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ فَوْقَ الْحَدَّ، وَأَوْقَعَ كَلَامِي فِي نُفُوسِهِمْ فَلَا يَرْتَابُونَ بِصِحَّتِهِ. وَقَدْ أَسْلَمَ عَلَى يَدِي نَحْوُ مِنْ^(١) مَيْتَيْنِ مِنْ أَهْلِ الذَّمَّةِ، وَلَقَدْ تَابَ فِي مَجَالِسِي أَكْثُرُ مِنْ مِئَةِ أَلْفٍ، وَقَدْ قَطَعْتُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفَ سَالِفِ مَمَّا يَتَعَانَاهُ الْجُهَّالُ.

١٧٠٠ - وَلَقَدْ كُنْتُ أَدُورُ عَلَى الْمَشَايخِ لِسَمَاعِ الْحَدِيثِ، فَيَنْقَطِعُ نَفْسِي مِنَ الْعَدُوِ لِئَلَّا أَسْبَقَ، وَكُنْتُ أَضْبِحُ، وَلَيْسَ لِي مَأْكُلٌ، وَأَمْسِيَ وَلَيْسَ لِي مَأْكُلٌ، مَا أَذَّنِي اللَّهُ لِمَخْلُوقٍ قَطُّ، وَلَكِنَّهُ سَاقَ رِزْقِي لِصِيَانَةِ عِرْضِيِّ، وَلَوْ شَرَحْتُ أَحْوَالِي لِطَالَ الشَّرْخُ.

وَهَا أَنَا قَدْ تَرَى مَا آلَتْ حَالِي إِلَيْهِ، وَأَنَا أَجْمَعُهُ لَكَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآتَيْتُمُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ كُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٤/٣٧٨ - فصل: اجتهد ما دام في الوقت سعة

١٧٠١ - فَانْتِهِ يَا بُنَيَّ لِنَفْسِكَ، وَانْدَمْ عَلَى مَا مَضَى مِنْ تَفْرِيظِكَ، وَاجْتَهِدْ فِي لَحَاقِ الْكَامِلِيْنَ، مَا دَامَ فِي الْوَقْتِ سَعَةً، وَاسْقِ غُصْنَكَ مَا دَامَتْ فِيهِ رُطْبَةً، وَادْكُرْ سَاعَتَكَ الَّتِي ضَاعَتْ فَكَفَى بِهَا عِظَةً، ذَهَبَتْ لَذَّةُ الْكَسْلِ فِيهَا، وَفَاتَتْ مَرَاتِبُ الْفَضَائِلِ.

(١) ساقطة من (ت).

١٧٠٢ - وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ - رَحْمَهُمُ اللَّهُ - يُحِبُّونَ جَمْعًا كُلًّا فَضِيلَةً، وَيَبْكُونَ عَلَى فَوَاتِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحْمَةُ اللَّهِ: دَخَلْنَا عَلَى عَابِدٍ مَرِيضٍ، وَهُوَ يَنْتَرُ إِلَى رِجْلِيهِ وَيَبْكِي، فَقُلْنَا: مَا لَكَ تَبْكِي؟ فَقَالَ: مَا اغْبَرَتَا فِي سَيِّلِ اللَّهِ. وَبَكَى آخَرُ فَقَالُوا: مَا يُبَكِّيْكَ؟ فَقَالَ: عَلَيَّ يَوْمٌ مَضَى مَا صُمْتُهُ، وَعَلَيَّ لَيْلَةٌ دَهَبَتْ مَا قُمْتُهَا.

١٧٠٣ - وَاعْلَمُ - يَا بْنِي - أَنَّ الْأَيَّامَ تُبْسَطُ سَاعَاتٍ، وَالسَّاعَاتِ تُبْسَطُ أَنْفَاسًا، وَكُلُّ نَفْسٍ حِزَانَةٌ، فَأَخْذَرْ أَنْ يَذْهَبَ نَفْسٌ بِغَيْرِ شَيْءٍ، فَنَرَى فِي الْقِيَامَةِ حِزَانَةً فَارِغَةً فَتَنَدَّمَ.

١٧٠٤ - وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ لِعَامِرٍ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: قِفْ أَكَلْمَكَ، فَقَالَ: أَمْسِكِ الشَّمْسَ.

١٧٠٥ - وَقَعَدَ قَوْمٌ عِنْدَ مَعْرُوفٍ رَحْمَةُ اللَّهِ فَقَالَ: أَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَقُومُوا؛ فَإِنَّ مَلَكَ الشَّمْسِ يَجْرِيْهَا لَا يَفْتُرُ!

١٧٠٦ - وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِستُ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، فَانْظُرْ إِلَى مُضَيِّعِ السَّاعَاتِ كُمْ يَقُولُهُ مِنَ النَّخْلِ!

١٧٠٧ - وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَغْتَنِمُونَ الْلَّحَظَاتِ، فَكَانَ كَهْمَسُ^(١) رَحْمَةُ اللَّهِ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَكَانَ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنَ السَّلَفِ يُصَلِّونَ الصُّبْحَ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ، وَكَانَتْ رَابِعَةُ الْعَدُوِيَّةِ تُحْبِي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ هَجَعَتْ هَجْعَةً خَفِيفَةً، ثُمَّ قَامَتْ فَزِعَةً، وَقَالَتْ لِنَفْسِهَا: النَّوْمُ فِي الْقُبُورِ طَوِيلٌ.

٣٧٩ - فصل: النظر في حقيقة الدنيا

١٧٠٨ - وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ رَأْيٌ مُدَّةً طَوِيلَةً، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا رَأْيٌ مُدَّةً طَوِيلَةً، وَعَلِمَ أَنَّ الْبَيْثَ فِي الْقُبُورِ طَوِيلٌ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلِمَ أَنَّهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي الْبَيْثِ فِي الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلِمَ أَنَّهُ لَا

(١) كهمس بن الحسين التميمي البصري، أبو الحسن، عابد، توفي سنة (١٤٩هـ).

نِهَايَةَ لَهُ . فَإِذَا عَادَ إِلَى النَّظَرِ فِي مِقْدَارٍ بَقَائِهِ فِي الدُّنْيَا فَرَضْنَا سِتِّينَ سَنَةً مَثَلًا ، فَإِنَّهُ يُمْضِي ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي النُّوْمِ ، وَنَحْوًا مِنْ خَمْسَ عَشْرَةً فِي الصَّبَابِ ، فَإِذَا حَسِبَ الْبَاقِي كَانَ أَكْثُرُهُ ، فِي الشَّهْوَاتِ وَالْمَطَاعِيمِ وَالْمَكَاسِبِ ، فَإِذَا خَلَصَ مَا لِلآخِرَةِ وَجَدَ فِيهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعَفْلَةِ كَثِيرًا ، فَبِمَا ذَاتِ تَشْتِرِي الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ ، وَإِنَّمَا التَّمَنُ هَذِهِ السَّاعَاتِ؟

٣٨٠ - فصل: لا تيأس من الخير

١٧٠٩ - وَلَا يُؤْيِسُكَ - يَا بُنَيَّ - مِنَ الْخَيْرِ مَا مَضَى مِنَ التَّقْرِيرِ، فَإِنَّهُ قَدِ اتَّبَعَ خَلْقَ كَثِيرٍ بَعْدَ الرَّقَادِ الطَّوِيلِ.

١٧١٠ - فَقَدْ حَدَّثَنِي الشَّيْخُ أَبُو حَكِيمٍ عَنْ قَاضِي الْقُضَا الشَّيْخِ أَبْنِ الْحَسَنِ الدَّامَغَانِيِّ^(١) رَجَلُهُ كَمْلَةُ اللَّهِ قَالَ: كُنْتُ فِي صَبَوَتِي مُشَاغِلاً بِالْبَطَالَةِ غَيْرَ مُلْتَقِتٍ إِلَى الْعِلْمِ، فَأَخْضَرَنِي أَبِي، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ^(٢) رَجَلُهُ وَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ! لَسْتُ أَبْقَى لَكَ أَبْدًا، فَخُذْ عِشْرِينَ دِينَارًا، وَافْتَحْ لَكَ دُكَانَ خَبَازٍ وَتَكَبَّبْ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا الْكَلَامُ؟! قَالَ: فَافْتَحْ دُكَانَ بَزَازٍ^(٣)، فَقُلْتُ: كَيْفَ تَقُولُ لِي هَذَا، وَأَنَا ابْنُ قَاضِي الْقُضَا أَبْنِي عَبْدِ اللَّهِ الدَّامَغَانِيِّ؟! قَالَ: فَمَا أَرَاكَ تَطْلُبُ الْعِلْمَ! فَقُلْتُ: اذْكُرْ لِي الدَّرْسَ سَاعَةً، فَذَكَرَ لِي، فَأَقْبَلْتُ عَلَى التَّشَاغُلِ^(٤) بِالْعِلْمِ، وَاجْتَهَدْتُ، فَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ.

١٧١١ - وَحَكَىٰ لِي بَعْضُ أَصْحَابِ أَبِي مُحَمَّدِ الْحَلْوَانِيِّ رَحْمَةُ اللَّهِ قَالَ: مَاتَ أَبِي وَأَنَا ابْنُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَكُنْتُ مَوْصُوفًا بِالْبَطَالَةِ، فَأَتَيْتُ أَتَقَاضَى بَعْضَ سُكَّانِ دَارِ قَدْ وَرَثْتُهَا، فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: جَاءَ الْمُدَبَّرُ، أَيِ الرَّبِيعُ^(٥)، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: يُقَالُ عَنِّي هَذَا!! فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالِّذِي فَقُلْتُ: إِذَا أَرَدْتَ طَلَبِي فَأَظْلِبِينِي مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ أَبِي الْخَطَابِ^(٦)، وَلَا زَمْتُهُ، فَمَا خَرَجْتُ إِلَّا إِلَيْهِ الْقَضَاءِ، فِصْرُتُ قاضِيًا مُدَّةً.

(١) أبو الحسن بن محمد بن علي بن محمد الدامغاني، الغدادي، كان هو وأبوه قاضياً للقضاء.

(٢) العلامة البارع مفتى العراق وقاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الدامغاني الحنفي (٣٩٨ - ٤٧٨ هـ).

(٤) في ت: الاشتغال.

(۳) بزاں: بائیع ٹیاپ.

(٥) الربط: الذي يعيش بمال غيره.

(٦) محفوظ بن أحمد الكلواذاني، تلميذ أبي يعلى الفراء (٤٣٢ - ٥١٠ هـ)، شيخ الحنابلة حتى صار =

قلتُ : وَرَأَيْتُهُ أَنَا ، وَهُوَ يُفْتِنِي وَيُنَاهِي .

١٧١٢ - فَأَلْزَمْ نَفْسَكَ - يَا بُنَيَّ - الانتِبَاهَ عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ ، وَلَا تَتَحَدَّثْ بِحَدِيثِ الدُّنْيَا ، فَقَدْ كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ - رَحْمَهُمُ اللَّهُ - لَا يَتَكَلَّمُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِشَيْءٍ مِّنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَقُلْ عِنْدَ انتِبَاهِكَ مِنَ النَّوْمِ : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانِي بِعَدْمِاً أَمَاتَنِي وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(١) ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي 《وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِنَا لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ》 [الحج: ٦٥] .

١٧١٣ - ثُمَّ قُمْ إِلَى الطَّهَارَةِ ، وَأَرْكَعْ سُنَّةَ الْفَجْرِ ، وَأَخْرُجْ إِلَى الْمَسْجِدِ حَاسِعاً ، وَقُلْ فِي طَرِيقِكَ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ ، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا ، إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرَا وَلَا بَطَرَا ، وَلَا رَيَاءً وَلَا سُمْعَةً ، خَرَجْتُ اتَّقَاءَ سَخَطِكَ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُحِيرَنِي مِنَ النَّارِ ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢) .

وَاقْصِدِ الصَّلَاةَ إِلَى يَمِينِ الْإِمَامِ ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ فَقُلْ : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمْتِتُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» - عَشْرَ مَرَاتٍ^(٣) - ثُمَّ سَبْعَ عَشْرَأً ، وَاحْمَدْ عَشْرَأً ، وَكَبَّرْ عَشْرَأً^(٤) ، وَافْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ^(٥) ، وَاسْأَلِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَبْوَلَ الصَّلَاةِ .

١٧١٤ - فَإِنْ صَحَّ لَكَ ، فَاجْلِسْ ذَاكِرًا اللَّهَ تَعَالَى إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَتَرْتَفَعَ ، ثُمَّ صَلِّ وَأَرْكَعْ مَا كُتِبَ لَكَ ، وَإِنْ كَانَ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ ، فَهُوَ حَسَنٌ .

= إمام وقته، قال الذهبـي: كان أبو الخطاب من محاسن العلماء، خيراً صادقاً، حسن الخلـق، حلو النـادرة، من أذكياء الرجال.

(١) رواه البخارـي (٦٣١٤).

(٢) رواه ابن ماجـه (٧٧٨)، وأحمد (٢١/٣)، والطبرـاني في الدعـاء (٤٢١) عن أبي سعيد الخـدرـي رضـيـ اللهـ عـنـهـ، وفي سـنـدهـ عـطـيةـ العـوـفـيـ سـيـئـ الحـفـظـ وـمـدـلسـ.

(٣) رواه النـسـائيـ في عملـ الـيـومـ وـالـلـيـلـةـ (١٢٥) عـداـ قولـهـ: (بيـدـهـ الـخـبـرـ).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٦٥)، والترـمـذـيـ (٣٤١٠)، والنـسـائيـ (٧٤/٣)، وابنـ مـاجـهـ (٩٢٦) عن عبدـ اللهـ بنـ عمـروـ رضـيـ اللهـ عـنـهـ.

(٥) رواه النـسـائيـ في عملـ الـيـومـ وـالـلـيـلـةـ (١٠٠)، وابنـ السـنـيـ (١٢٢) عن أبيـ أمـامـةـ رضـيـ اللهـ عـنـهـ.

١٧١٥ - فَإِذَا أَعْدْتَ دَرْسَكَ إِلَى وَقْتِ الْضُّحَى الْأَعْلَى، فَصَلَّى الْضُّحَى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، ثُمَّ تَشَاغَلْ بِمُطَالَعَةٍ، أَوْ نَسْخَ إِلَى وَقْتِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عُدَّ إِلَى دَرْسِكَ مِنْ بَعْدِ الْعَصْرِ إِلَى وَقْتِ الْمَغْرِبِ، وَصَلَّى بَعْدَ الْمَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ بِجُزْأَيْنِ، فَإِذَا صَلَّيْتَ الْعِشَاءَ، فَعُدَّ إِلَى دُرُوسِكَ.

١٧١٦ - ثُمَّ اضْطَجَعْ عَلَى سِقْكَ الْأَيْمَنِ، فَسَبَّحَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ^(١)، وَقُلْ: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ، يَوْمَ تَجْمَعُ عِبَادَكَ»^(٢).

١٧١٧ - وَإِذَا فَتَحْتَ عَيْنِيكَ مِنَ النَّوْمِ فَأَعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا، فَقُمْ إِلَى الْوُضُوءِ، وَصَلَّى فِي ظَلَامِ اللَّيلِ مَا أَمْكَنَ، وَاسْتَفْتَحْ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ بَعْدَهُمَا رَكْعَتَيْنِ بِجُزْأَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى دَرْسِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ نَافِلَةٍ.

٣٨١ - غَصْل: العزلة أصل كل خير

١٧١٨ - وَعَلَيْكَ بِالْعُزْلَةِ، فَهِيَ أَصْلُ كُلِّ حَيْرٍ، وَاحْذَرْ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ، وَلْيُكُنْ جُلَسَاؤُكَ الْكُتُبُ، وَالنَّظَرُ فِي سِيرِ السَّلَفِ.

١٧١٩ - وَلَا تَشْتَغِلْ بِعِلْمٍ حَتَّى تُحِكِّمَ مَا قَبْلَهُ، وَتَلَمَّعْ سِيرَ الْكَامِلِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَلَا تَقْنَعْ بِالدُّونِ، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ^(٣):

وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنْفُصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

١٧٢٠ - وَأَعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ يَرْفَعُ الْأَرَادَلَ، فَقَدْ كَانَ خَلْقُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ لَا نَسَبَ لَهُمْ يُذَكِّرُ، وَلَا صُورَةً تُسْتَحْسَنُ.

١٧٢١ - وَكَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ^(٤) أَسْوَدَ الْلَّوْنِ، مُسْتَوْحِشَ الْخِلْفَةِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَهُوَ خَلِيفَةً - وَمَعَهُ ولَدَاهُ^(٥)، فَجَلَسُوا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْمَنَاسِكِ،

(١) رواه البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧) عن علي بن أبي طالب.

(٢) رواه الترمذى (٣٣٩٨) عن حذيفة.

(٣) المتنبي، ديوانه ص (٤٧٦).

(٤) أبو محمد القرشي الجمحي مولاهم، ولد في الجند باليمن، ونشأ بمكة، وكان من أواعية العلم، حتى صار شيخ الإسلام ومفتى الحرم، توفي سنة (١١٤ هـ).

(٥) في م: ولده

فَحَدَّثَهُمْ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُم بِوْجُوهِهِ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لِوَلَدِيهِ: قُومًا وَلَا تَنِيَا، وَلَا تَكْسَلَا
فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَمَا أَنْسَى ذُلَّنَا بَيْنَ يَدَيِ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ.

١٧٢٢ - وَكَانَ الْحَسَنُ مَوْلَى - أَيْ: مَمْلُوكًا - وَابْنُ سِيرِينَ وَمَكْحُولُ وَخَلْقُ
كَثِيرٍ، وَإِنَّمَا شَرُفُوا بِالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى.

٣٨٢/٨ - فصل: اقتنع تعز

١٧٢٣ - وَاجْتَهَدْ يَا بُنَيَّ فِي صِيَانَةِ عِرْضِكَ مِنَ التَّعَرُضِ لِطَلَبِ الدُّنْيَا، وَالذُّلُّ
لِأَهْلِهَا، وَاقْنَعْ تَعَزَّ، فَقَدْ قِيلَ: مَنْ قَنَعَ بِالْخُبْرِ وَالْبَقْلِ لَمْ يَسْتَعِدْهُ أَحَدٌ.

١٧٢٤ - وَمَرَّ^(١) أَغْرَابِيًّا عَلَى الْبَصْرَةِ فَقَالَ: مَنْ سَيِّدُ هَذِهِ الْبَلْدَةَ^(٢)? قِيلَ لَهُ:
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، قَالَ: وَبِمَ^(٣) سَادُهُمْ؟ قَالُوا: لِأَنَّهُ اسْتَعْنَى عَنْ دُنْيَا هُمْ، وَافْتَقَرُوا إِلَى
عِلْمِهِ.

١٧٢٥ - وَأَعْلَمْ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ أَبِي كَانَ مُؤْسِرًا وَخَلَفَ الْأُوفَا مِنَ الْمَالِ، فَلَمَّا
بَلَغْتُ، دَفَعُوا لِي عِشْرِينَ دِينَارًا وَدَارَيْنِ، وَقَالُوا لِي: هَذِهِ التَّرِكَةُ كُلُّهَا، فَأَخَذْتُ
الدَّنَانِيرَ، وَاشْتَرَيْتُ بِهَا كُتُبًا مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ، وَبَعْتُ الدَّارَيْنِ، وَأَنْفَقْتُ ثَمَنَهُمَا فِي طَلَبِ
الْعِلْمِ، وَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ، وَمَا ذُلَّ أَبُوكَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ قُطُّ، وَلَا خَرَجَ
يَطُوفُ فِي الْبُلْدَانِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْوُعَاظِ، وَلَا بَعَثَ رُقْعَةً إِلَى أَحَدٍ يَظْلَبُ مِنْهُ شَيْئًا قُطُّ،
وَأَمْوَرُهُ تَجْرِي عَلَى السَّدَادِ «وَمَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِحَسْنَاتِهِ فَلَهُ[◎] حَسْنَاتٌ
يَحْتَسِبُ» [الطلاق: ٢، ٣].

٣٨٣/٩ - فصل: متى صحت التقوى رأيت كل خير

١٧٢٦ - يَا بُنَيَّ! وَمَتَى صَحَّتِ التَّقْوَى رَأَيْتَ كُلَّ خَيْرٍ، وَالْمُتَّقِيُّ لَا يُرَأِي
الْخَلْقَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِمَا يُؤْذِي دِينَهُ، وَمَنْ حَفِظَ حُدُودَ اللَّهِ حَفِظَهُ اللَّهُ. قَالَ

(١) وفي نسخة: وجاز.

(٢) وفي نسخة: القرية.

(٣) وفي نسخة: ولم.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِابْنِ عَبَاسٍ رَضِيَّاً عَنْهُ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَحْذِهُ أَمَامَكَ»^(١).

١٧٢٧ - وَاعْلَمْ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ يُونُسَ رَضِيَّاً عَنْهُ لَمَّا كَانَتْ ذَخِيرَتُهُ خَيْرًا نَجَاهَا مِنَ الشِّدَّةِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسِيَّبِينَ»^(٢) لِلِّبَثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. وَأَمَّا فِرْعَوْنُ فَلَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهُ ذَخِيرَةٌ خَيْرٌ، لَمْ يَجِدْ فِي شِدَّتِهِ^(٣) مَخْلَصًا، فَقِيلَ لَهُ: «إِلَئِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ» [يُونُس: ٩١]. فَاجْعَلْ لَكَ ذَخَائِرَ خَيْرٍ مِنْ تَقْوَىٰ تَجِدْ تَأْثِيرَهَا. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ شَابٌ اتَّقَى اللَّهَ فِي شَبَابِهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ فِي كَبَرِهِ»^(٤). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُ، إِذَا يَتَّهَمُهُ حَكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَّلَكَ بَخْرَى الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٢٢]. وَقَالَ: «إِنَّمَّا مَنْ يَتَّقَ وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٩٠].

١٧٢٨ - وَاعْلَمْ أَنَّ أَوْفَى الدَّخَائِرَ غُصُّ الْطَّرْفِ عَنْ مُحَرَّمٍ، وَإِمساكُ اللَّسَانِ عَنْ فَضُولِ كَلِمَةٍ، وَمَرَاعَاةٌ لِحَدَّ، وَإِيتَارُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَوَى النَّفْسِ.

١٧٢٩ - وَقَدْ عَرَفْتَ حَدِيثَ: «الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا إِلَى غَارٍ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي أَبُوَانِ وَأَوْلَادٍ، فَكُنْتُ أَقْفُ بِالْحَلِيبِ عَلَى أَبَوَيِّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ أَوْلَادِي، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ فَافْرُجْ عَنَّا، فَانْفَرَجَ ثُلُثُ الصَّخْرَةِ. وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا، فَتَسَخَّطْ أَجْرَهُ، فَاتَّجَرْتُ بِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا فَقَالَ: أَلَا تَخَافُ اللَّهَ وَتَعْطِينِي أَجْرَتِي؟ فَقُلْتُ: انْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرُعَاعِهَا فَخُذْهَا، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ فَفَرَّجْ عَنَّا، فَانْفَرَجَ ثُلُثًا الصَّخْرَةِ، فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَلِقْتُ^(٤) بِنَتَ عَمٍّ لِي، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهَا قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْضَلْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقَمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ فَفَرَّجْ عَنَّا، فَرُفِعَتِ الصَّخْرَةُ، وَخَرَجُوا^(٥).

١٧٣٠ - وَرَأَيَ سُفِيَّانُ الشَّوَّرِيُّ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا

(١) رواه أحمد (٢٩٣/١)، والترمذى (٢٥١٦).

(٢) في نسخة: سكرته.

(٣) انظر: كنز العمال (٤٣١٠٥ و ٤٣١٠٦).

(٤) علق: عشق.

(٥) ساق المؤلف الحديث بالمعنى، وقد تقدم تحريرجه.

فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: مَا كَانَ إِلَّا أَنْ وُضِعْتُ فِي الْلَّهْدِ، فَإِذَا أَنَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَدَخَلْتُ، فَإِذَا بِقَائِلٍ يَقُولُ: سُفِيَانُ؟ قُلْتُ: سُفِيَانُ. قَالَ: تَذَكُّرُ يَوْمَ آثَرَتِ اللَّهُ عَلَى هَوَاكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَأَخَذَنِي صَوَانِي النَّثَارِ^(١) فِي الْجَنَّةِ.

٣٨٤/١٠ - فصل: سمو الهمة إلى الكمال

١٧٣١ - وَيَنْبَغِي أَنْ تَسْمُو هِمَّتُكَ إِلَى الْكَمَالِ، فَإِنَّ خَلْقًا وَقَفُوا مَعَ الرُّهْدِ، وَخَلْقًا تَشَاغَلُوا بِالْعِلْمِ، وَنَدَرَ أَقْوَامٌ جَمَعُوا بَيْنَ الْعِلْمِ الْكَامِلِ، وَالْعَمَلِ الْكَامِلِ.

١٧٣٢ - وَأَعْلَمُ أَنِّي قَدْ تَصَفَّحْتُ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدُهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَخْطَى بِالْكَمَالِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ: سَعِيدُ بْنِ الْمُسَيْبِ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَسُفِيَانَ الثُّورِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ^(٢)، وَقَدْ كَانُوا رِجَالًا، وَإِنَّمَا كَانَتْ لَهُمْ هِمَّ ضَعْفَتْ عِنْدَنَا، وَقَدْ كَانَ فِي السَّلْفِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لَهُمْ هِمَّ عَالِيَّةٌ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى أَخْوَاهُمْ، فَانْظُرْ فِي كِتَابِ (صِفَةِ الصَّفْوَةِ)^(٣) وَإِنْ شِئْتَ تَأْمَلْ أَخْبَارَ سَعِيدٍ، وَالْحَسَنِ، وَسُفِيَانَ، وَأَحْمَدَ^(٤)، فَقَدْ جَمَعْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كِتَابًا.

٣٨٥/١١ - فصل: الحفظ رأس المال والتصرف ربح

١٧٣٣ - وَقَدْ عَلِمْتَ يَا بُنَيَّ أَنِّي صَنَّفْتُ مِئَةَ كِتَابٍ^(٣)، فَمِنْهَا التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ^(٤): عِشْرُونَ مُجَلَّدًا، وَالتَّارِيخُ^(٥): عِشْرُونَ مُجَلَّدًا، وَتَهْذِيبُ الْمُسْنَدِ: عِشْرُونَ مُجَلَّدًا، وَبَاقِي الْكُتُبِ بَيْنَ كِبَارٍ وَصِغارٍ، يَكُونُ خَمْسَةً مُجَلَّدَاتٍ، وَمُجَلَّدَيْنِ، وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً، وَأَقْلَى وَأَكْثَرَ، كَفَيْتُكَ بِهُذِهِ التَّصَانِيفِ عَنِ اسْتِعَارَةِ الْكُتُبِ، وَجَمِيعِ الْهِمَمِ فِي التَّالِيفِ.

١٧٣٤ - فَعَلَيْكَ بِالْحِفْظِ! وَإِنَّمَا الْحِفْظُ رَأْسُ الْمَالِ وَالْتَّصَرُّفُ رِبْحٌ، وَأَصْدُقُ فِي الْحَالَيْنِ فِي الْأَلْتِجَاءِ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، فَرَاعَ حُدُودَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَصْرُّوا لَهُ﴾

(١) أوانٍ يشير ما فيها من حلوي في الأفراح إكراماً للضيف.

(٢) للمؤلف.

(٣) هذا إلى وقت كتابة هذه الرسالة.

(٤) هو المعني الآتي ذكره.

(٥) هو المعني الآتي ذكره.

يَصُرُّكُمْ》 [محمد: ٧]، 《فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ》 [البقرة: ١٥٢]، 《وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ》 [البقرة: ٤٠].

٣٨٦ - فصل: من أعرض عن العمل منع البركة

١٧٣٥ - وَإِيَّاكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ صُورَةِ الْعِلْمِ دُونَ الْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ الدَّاخِلِينَ عَلَى الْأُمَرَاءِ، وَالْمُقْبِلِينَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا قَدْ أَغْرَضُوا عَنِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ، فَمَنْعَوْا الْبَرَكَةَ، وَالنَّفَعَ بِهِ.

٣٨٧ - فصل: على قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السماعون

١٧٣٦ - وَإِيَّاكَ أَنْ تَشَاغَلَ بِالتَّعْبُدِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، فَإِنَّ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ الْمُتَزَهَّدِينَ الْمُتَضَوِّفَةِ ضَلُّوا طَرِيقَ الْهُدَى، إِذْ عَمِلُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ.

١٧٣٧ - وَأَسْتُرْ نَفْسَكَ بِشَوَّبِينِ جَمِيلَيْنِ لَا يُسْهِرَاكَ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا بِرِفْعَتِهِمَا، وَلَا بَيْنَ الْمُتَزَهَّدِينَ بِضِعَتِهِمَا.

١٧٣٨ - وَحَاسِبْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ نَظَرَةٍ وَكَلِمَةٍ وَخُطْوَةٍ، فَإِنَّكَ مَسْؤُلٌ عَنْ ذَلِكَ، وَعَلَى قَدْرِ انتِفَاعِكَ بِالْعِلْمِ يَنْتَفِعُ السَّامِعُونَ، وَمَتَى لَمْ يَعْمَلِ الْوَاعِظُ بِعِلْمِهِ زَلَّ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ، كَمَا يَزَلُّ الْمَاءُ عَنِ الْحَجَرِ، فَلَا تَعِظَنَ إِلَّا بِنَيَّةٍ، وَلَا تَمْشِيَنَ إِلَّا بِنَيَّةٍ، وَلَا تَأْكُلَنَ لُقْمَةً إِلَّا بِنَيَّةٍ، وَمَعَ مُطَالَعَةِ أَخْلَاقِ السَّلَفِ يَنْكَشِفُ لَكَ الْأَمْرُ.

٣٨٨ - فصل: عليك بقراءة هذه الكتب

١٧٣٩ - وَعَلَيْكَ بِكِتَابِ (مِنْهاجِ الْمُرِيدِينَ) فَإِنَّهُ يُعَلِّمُكَ السُّلُوكَ، وَاجْعَلْهُ جَلِيسَكَ وَمُعَلِّمَكَ، وَتَلَمَّحْ كِتَابَ (صَيْدِ الْخَاطِرِ) فَإِنَّكَ تَقْعُ بِوَاقِعَاتٍ تُصْلِحُ لَكَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَتَحْفَظْ كِتَابَ (جَنَّةُ النَّظَرِ) فَإِنَّهُ يَكْفِي فِي تَلْقِيْحِ فَهْمَكَ لِلْفِقْهِ، وَمَتَى تَشَاغَلْتَ بِكِتَابِ (الْحَدَائِقِ) أَطْلَعَكَ عَلَى جُمْهُورِ الْحَدِيثِ، وَإِذَا التَّفَتَ إِلَى كِتَابِ (الْكَشْفِ) أَبَانَ لَكَ مَسْتُورَ مَا فِي (الصَّحِيحَيْنِ) مِنَ الْحَدِيثِ، وَلَا تَشَاغَلْنَ بِكُتُبِ التَّفَاسِيرِ الَّتِي

صَنَفَتْهَا الْأَعْاجِمُ، وَمَا تَرَكَ (الْمُعْنِي) وَ(زَادُ الْمَسِيرِ) لَكَ حَاجَةً! فِي شَيْءٍ مِّن التَّفْسِيرِ^(۱). وَأَمَّا مَا جَمَعْتُهُ لَكَ مِنْ كُتُبِ الْوَعْظِ فَلَا حَاجَةَ بَعْدَهَا إِلَى زِيادةٍ أَصْلًا.

٣٨٩ / ١٥ - فصل: حسن المداراة

١٧٤٠ - وَكُنْ حَسَنَ الْمُدَارَاةِ لِلْخُلُقِ، مَعَ شِلَّةِ الْاعْتِزَالِ عَنْهُمْ، فَإِنَّ الْعُزْلَةَ رَاحَةٌ مِّنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ، وَمُبِيقَيْهِ لِلْوَقَارِ، فَإِنَّ الْوَاعِظَ - خَاصَّةً - يَنْبَغِي لَهُ أَلَا يُرَى مُتَبَذِّلاً، وَلَا مَاشِيَا فِي السُّوقِ، وَلَا ضَاحِكًا، لِيَحْسُنَ الظَّنُّ بِهِ، فَيُنْتَفَعُ بِوَعْظِهِ، فَإِذَا اضْطُرِرْتَ إِلَى مُخَالَطَةِ النَّاسِ فَخَالِطُهُمْ بِالْحِلْمِ عَنْهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ كَشَفْتَ عَنْ أَخْلَاقِهِمْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُدَارَاتِهِمْ.

٣٩٠ / ١٦ - فصل: أَدَّ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ

١٧٤١ - وَأَدَّ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وَقَرَابَةٍ، وَانْظُرْ كُلَّ سَاعَةٍ مِّنْ سَاعَاتِكَ، بِمَاذَا تَذَهَّبُ؟ فَلَا تُؤْدِعَهَا إِلَّا^(۲) أَشْرَفَ مَا يُمْكِنُ، وَلَا تُهْمِلْ نَفْسَكَ، وَعَوْدَهَا أَشْرَفَ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَمَلِ وَأَحْسَنَهُ، وَابْعَثْ إِلَى صُندُوقِ الْقَبْرِ مَا يَسُرُّكَ الْوُصُولُ إِلَيْهِ، كَمَا قِيلَ:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَفَلْ
وَغَرَّهُ طُوْلُ الْأَمْلْ
الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً
وَالْقَبْرُ صُندُوقُ الْعَمَلْ

١٧٤٢ - وَرَاعَ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، يَهْنَ عَلَيْكَ الصَّبْرُ عَنْ كُلِّ مَا تَشَتَّهِي وَمَا تَكْرُهُ، وَإِنْ وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ غَفْلَةً فَاحْمِلْهَا إِلَى الْمَقَابِرِ، وَذَكِّرْهَا قُرْبَ الرَّحِيلِ.

١٧٤٣ - وَدَبَرْ أَمْرَكَ - وَاللهُ الْمُدَبِّرُ - فِي إِنْفَاقِكَ، مِنْ غَيْرِ تَبْذِيرٍ، لِئَلَّا تَحْتَاجَ إِلَى النَّاسِ، فَإِنَّ حِفْظَ الْمَالِ مِنَ الدِّينِ، وَلَأَنْ تُخْلِفَ لِوَرَثَتِكَ خَيْرٌ مَّنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى النَّاسِ.

(٢) في ت: إلى.

(١) في نسخة: فن التفسير.

١٧٤٤ - يَا بُنَيَّ، وَأَعْلَمُ أَنَّا مِنْ أَوْلَادِ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رضي الله عنه، وَأَبُونَا الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه - وَأَخْبَارُهُ مُؤَثَّةٌ فِي كِتَابٍ (صِفَةُ الصَّفْوَةِ) ^(١).

١٧٤٥ - ثُمَّ تَشَاغَلَ سَلْفُنَا بِالشَّجَارَةِ وَالبَّيْعِ وَالشَّرَاءِ، فَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَأْخِرِينَ مِنْ رُزِقِ هِمَّةٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ غَيْرِي، وَقَدْ آلَ الْأَمْرُ إِلَيْكَ، فَاجْتَهِدْ أَلَا تُخَيِّبَ ظَنِّي فِيمَا رَجَوْتُهُ فِيكَ وَلَكَ، وَقَدْ أَسْلَمْتُكَ إِلَى اللَّهِ سبحانه، وَإِيَاهُ أَسْأَلُ أَنْ يُوْفِقَكَ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. وَهَذَا قَدْرُ اجْتَهَادِي فِي وَصِيَّتِي، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُزِيدٌ الْحَامِدِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَاحِبِهِ وَسَلَّمَ.

جاء في آخر النسخة الخطية التي نقلنا عنها الموجودة بدار الكتب المصرية تحت
نمرة (١٢٥) مجاميع، ما نصه:

آخر كتاب (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد) والحمد لله رب العالمين، وصلوات الله على
سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه الأكرمين، كتب في يوم الإثنين ثالث عشر شعبان المعظم سنة
ثلاث وسبعين مئة.

وقولت بنسخة أخرى موجودة بدار الكتب تحت نمرة (١٢٣) مجاميع، وذلك في يوم
الأربعاء ٢٣ من رمضان سنة (١٣٤٩) هـ بمعرفة عثمان خليل.



(١) صفة الصفوة، ترجمة رقم (١٦٣): ٨٨/٢ ط. دار الوعي بحلب.